كلمة المترجم

هذا كتاب يتجاوز المحلية مادةً ومؤلفا .

أما مادته فمناهج البحث الأدبى Metodos de Critica Literaria ، يعرضها بأسلوب علمى ، والعلم قواعد مجردة ، لا يختلف عليها أحد ، وإن طبقها كل واحد فى ضوء ظروفه وإمكاناته .

ومؤلفه Enrique Anderson Imbert عالمى على نحو ما ، فهو من الأرجنتين ، وُلد فى قرطبة عاصمة أكبر المحافظات الأرجنتينية ، وتخرج فى جامعة بونس أيرس ، ونال منها شهادة الدكتوراة ، ودرس على أعلام الأدب والنقد الإسبان الذين كانوا يعملون فيها ، ثم أصبح أستاذا فيها ، وعمل أستاذاً فى جامعة ميتشجان فى الولايات المتحدة ، ثم استقر به المقام فى جامعة هارفارد أستاذا لكرسى النقد الحديث فيها ، وقد أنشئ له خصيصا عام ١٩٦٥ . وكتب مؤلفه هذا باللغة الإسبانية ، ونشرته فى مدريد عاصمة إسبانيا عام ١٩٦٩ مجلة « أوكسيدينت ، أى الغرب » ، التى أنشأها الفيلسوف الإسبانى **أورتيجا إى جاسيت** (١٨٨٣ - ١٩٥٥) عام

١٩٢٣ ، ولا تزال تواصل صدورها حتى يومنا هذا ، وقصد بها صاحبها ، وبسلسلة عظيمة من الإصدارات حملت عنوان : « مكتبة أفكار القرن العشرين » أن يخرج بها إسبانيا من تخلف القرون الماضية ، إلى نور القرن الذى نعيشه ، ومن هنا فإن كل ما تنشره محكوم بهذه الفكرة .

لكل مناخ من المناخات الثلاثة التى أومأتُ إليها طابعه فى التفكير والتعبير ، والذوق والتناول ، والتقت فى هذا الكاتب وصنعت منه مزيجا فريدا : الفكر الأمريكى العملى ، والروح الإسبانى الرومانسى ، والمزاج الأرجنتينى القلق ، الممزوج بأساطير الهنود القديمة ، ومن وراء ذلك كله اللغة الإسبانية فى ثرائها وسعتها فى التعبير والألفاظ .

تناول المؤلف المناهج النقدية المختلفة فى إحاطة وشمول وتمكن ، يوردها ويقومها ويوازن بينها ، ويقول ما لها وما عليها دون تعصب لفكرة أو مذهب ، ومنه نعى أن الجديد فى الحياة الثقافية لا يتوقف ، ولكنه لا يهدم القديم ولا يحل مكانه ، فهم هناك يجددون ، ولكنهم لا ينسون تراثهم ، ويتطلعون إلى المستقبل ولكنهم لا يتنكرون لماضيهم ، ويبدعون ولكنهم لايتخلون عما بين أيديهم ، ويختلفون ولكن يبقى الجوهر ، وتذهب الأيام بالزائف ، والعبقرية وحدها هى التى تجدد وتبتدع

أنماطا ، وتخلق أنواعا ، وتبنى جديدا ، أمّا أن يخرج فسل لا يقيم بناء جملة ، ولا يعرف كيف يقوّم بيتا من الشعر أو يقرأه دون أن يخطئ فى الضبط ، ثم يزعم لنفسه ريادة التجديد ، فيحاول هدم ما هو قائم ، ويدّعى لنفسه ما ليس فيه ولا بإمكانه ، فليس هذا تجديدا ولا تحديثا ولا تطويرا ولكنه التخريب بعينه .

نتمثّل ما عندنا ونعرف ما عند الآخرين بلا حدود ، فى معرفة الصيرف الحاذق ، يميز بين الجواهر والأعراض ، ونطوّع ما نأخذ لحاجتنا ، ونحن بإزائه سادة حين نختار ، لا عبيدا له إرادتنا ملغاة ، وقدرتنا على التمييز غائبة ، فنسقط فى هاوية التقليد الأعمى .

من هذا المنطلق أقدمت على ترجمة هذا الكتاب ، وهو جليل الفائدة فيما أرى ، لأنه يقدم علماً خالصا ، فى حياد دقيق ، ويدرك أبعاد ما يكتب واعيا ، ووقف جهده الأكبر عند النظريات ، وقلّل ما أمكنه من التطبيق والأمثلة . وعلى قلة ما نترجم الآن ، فإن ترجمة مثل هذا الكتاب أقل ، لأن ما نترجمه يدور فى جله حول النقد التطبيقى ، وفائدته محدودة للمثقفين ، فما بالك بمتوسطى الثقافة ومَن دونهم ، لأنه يعرض

فى تحليلاته لمئات الروايات والقصص محللا ومعلقا ، ونحن لم نقرأ ، ولا نعرف عناوينها فضلا عن محتواها ، وترجمة نقد لرواية لمّا يقرأها الذين ترجمت لهم ، لا تعنى غير ضياع الوقت والجهد .

وأما الترجمة فى مجال النظريات فهى محدودة فيما أعلم وفى المناهج النقدية أقل ، ربما لأن المعاناة فيها أضخم ، لاضطراب المصطلحات وكثرتها ، وقلة المعاجم الخاصة بها فى العربية وندرتها ، وعدم الإجماع عليها .

كانت رحلتى مع هذا الكتاب لذيذة وممتعة ، ومع ذلك لا أزعم أنها كانت سهلة ، فالرجل أديب يكتب القصة ، وناقد ومؤرخ ، وأستاذ جامعى وكاتب مقال ، ومتمكن من هذا كله ، ولذلك جاءت لغته نمطا فريدا فى التأليف الإسبانى ، ومن هنا كانت صعوبتها .

فهو مثلا يسير على النمط الأمريكى فى تبسيط الإملاء الإسبانى ، دون أن يشاركه الإسبان أنفسهم فى هذا الاتجاه ، يحذف ما لا ينطق ، ويخضع الشاذ للقاعدة ، ويصرّف الكلمات كما يحب ، ربما لأنه يرى نفسه أهلا لكل ذلك ، وقديما قال شاعرنا أبو تمام : « علينا أن نقول وعليكم أن

تتأولوا » ، إلى جانب أنه قليل التعصب للشكل الإسبانى الخالص فى الكتابة المحافظة على التراث بقوة ، وهو أمر يذكرنى بمنهج الأندلسيين فى كتابة العربية ، فقد كانوا لبعدهم عن مركز العروبة فى المشرق قليلى التعصب لشكل الكتابة المشرقية ، فهم يكتبون مثلا ألفاظ « هذا » و « لكن » بالألف : « هاذا » و « لاكن » ، وغير ذلك كثير .

وهو يتجاوز عن أدوات الربط بين الجمل تماما ، وتجئ عنده كما لو كانت برقيات منعزلة وموجزة ، أو تأخذ طابع محاضر يتحدث ، وربما كان ذلك اختصارا منه فى عالم يعيشه تحاصره القيم المادية من كل جانب ، ولعله أسلوب جديد فى التعامل مع اللغة ، ونهج شخصى فى الكتابة ، ولكن إسقاط أدوات الربط فى اللغة العربية أمر لا يتأتى .

لغة الكاتب علمية دقيقة ، ومع ذلك يؤثر الألفاظ غير الشائعة ، والإسبانية لغة بحار مفرداتها بلا ضفاف ، تغذّت من روافد عديدة ، أغزرها الرافد العربى على التأكيد ، وتحمل إلى جانب ذلك أصداء من لغات أخرى قديمة جدا : يونانية وسلتية وجرمانية ، وحتى من بقايا لغات هنود أمريكا القدامى ولا تدانيها فى ذلك لغة أوربية أخرى . والمؤلف لا يصنع ذلك

تكلفا فيما أرى ، ولكنه وهو ناقد أدبى كبير ، ومتمكن من الإسبانية جيدا تراثا وحاضرا ، ويتمثل الحضارات التى حوله وهى متعددة ، وعاشها واقعا أو اكتسابا عن طريق القراءة ، تكونت له شخصيته الفريدة هذه .

منهجى فى الترجمة ، كعادتى ، أن أنقل أفكار المؤلف ، مهما تكن ، فى أمانة ودقة ، وأحافظ حتى على أساليبه إذا اتسعت لها اللغة العربية ، ولست حريصا على أن أحجر على رأى القارئ بتعليق أو تفسير أو اعتراض ، وقد كتبت أسماء الأعلام الذين أوردهم فى حروف عربية ، بحسب ما هدتنى إليه معرفتى ، لأنهم ينتمون إلى لغات عديدة ، وأوردت فى آخر الكتاب قائمة بالأسماء مرتبة هجائيا حسب النطق العربى ، وما يقابلها من رسم لاتينى فى لغاتهم ، وكذلك ترجمتُ جل الهوامش ، تيسيرا فى الطباعة ، وتسهيلا على القارئ غير المتمكن ، مع ما فى ذلك من عناء ومجازفة ، لأن الهوامش تجئ أحيانا فى لغات عديدة : إنجليزية وألمانية وفرنسية وإيطالية ، فضلا عن الإسبانية ، والقارئ المتمكن من اللغات يستطيع أن يجدها وأكثر منها ، مكتوبة فى لغاتها الأصلية فى قائمة المصادر بآخر الكتاب ، وقد أوردناها كما هى .

والأعلام الذين أشار إليهم المؤلف فى الكتاب كُثْر ، جانب كبير منهم معروف للقارئ المتوسط ، ومن عنده أى إلمام بالنقد الحديث ، والبقية وليست بأقل ، لا ضير فى ألاّ يعرفهم القارئ ، لأنهم يجيئون عرَضا ، ولذلك عزفت عن التعريف بهم لأن ذلك سوف يضاعف من حجم الكتاب بمعلومات قليلة الفائدة ، وعلى أية حال فهم موجودون فى أى معجم حديث متوسط ، من تلك المعاجم التى تعنى بالترجمة للأفراد .

يستخدم المؤلف مصطلحات فلسفية ونفسية ونقدية واجتماعية ، وكثير منها وضعت المجامع العلمية مقابلا لها ، وبخاصة معاجم مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، وهى متنوعة ، وجهده فى هذا المجال مقدر ومشكور بلا حدود ، وبعضها استقر العمل به تقليدا ، ولكن جانبا منها لا يزال أمره متروكا للمترجمين ، وهى عملية بالغة العناء حقا ، وفى مثل هذه الكلمات ترجمتها بمعناها ، ووضعت المقابل الأجنبى بإزائها فما من فائدة ترجى من كتابة الكلمة اللاتينية بحروف عربية ، ما الذى يفهمه القارئ العربى من استخدام مصطلح Etnografie حين نكتبه إتنوجرافى ، أو مصطلح Gestalitheorie حين نكتبه « جشتا لتثيورى » ؟ لا شئ .

وبعد ،

فبين يدى القارئ جهد فرد ، يأمل أن يتسع حقل الترجمة فى بلاده ، فى كل المجالات ، فذلك هو سبيلنا لنعرف ما عند الآخرين ، وقديما قال أسلافنا : من تعلم لغة قوم أمن مكرهم ، فدعونا بالترجمة الواسعة نأمن مكر القوم الكافرين .

والله يهدى قومى إلى سواء السبيل

جمادى الآخرة ١٤١١ هـ

ديسمبر ١٩٩٠ م — الطاهر أحمد مكى

٣ شارع مصدق – الدقى — ت ٣٦١٣٣٠٦

الجيزة – مصر — ٣٤٧٩٣٩٢

إلى مرجوت

• مقدمة

نعترف ، قبل أى شئ ، بأن الموضوع غير محبّب لنا ، لإننا نحاول القيام بنقد النقد ، أى أن علينا أن نبتعد عن الأدب ، وهو ما له قيمة حقا ، وأن نريح أبصارنا على مادة جديدة .

لم يعد موضوعنا الأدب ، وإنما النقد ، والفارق بينهما أن الأدب تعبير على نحو ما عن الحدس بالأشياء ، والنقد على النقيض ، لأنه الدراسة الثقافية الدقيقة لذلك التعبير .

فالأدب تعبير .

والنقد دراسة .

ودون شك فإن حركتَىْ الروح هاتين ، التعبير والدراسة ، يلتقيان فى الشخص الواحد نفسه ، ففى كل شاعر يقبع ناقد يساعده على أن يُعنى ببناء قصيدته ، وفى الوقت نفسه يوجد فى أعماق كل ناقد شاعر يعلّمه من الداخل كيف يتعاطف مع ما يقرأ ، ولهذا تكثر فى تاريخ الشعر حالات الشعراء الذين تركوا لنا نقدا ذاتيا مضيئا ، وتكثر فى تاريخ النقد أيضا حالات النقاد الذين بدل أن يحللوا موضوعيا عملا ليس لهم يعكفون على جلاء قصائدهم نفسها .

ولكن هذا المزج لا ينتج بالطبع نقدا أدبيا ، وإنما يعطينا نقدا ذاتيا ، ويقدم لنا شعراء نقادا ، ولكي يكون نقدا حقيقيا تنقصه الموضوعية . وفى أحايين أخرى تعمل الوظيفتان ، المبدعة والناقدة ، منفصلتين فى الشخص الواحد نفسه ، وهى حالة بعض الكتاب الذين يمارسون التعبير عن أعمالهم الأدبية ذاتها من جانب ، ويدرسون أعمال الآخرين من جانب آخر ، وبقدر متساو فى الحالتين . والذين يبحثون عن « نقّاد خلّص » لا يكونون إلاّ نقادا ، تعوّدوا أن يشعروا بالغيظ والحنق أمام أصحاب الرأسين هؤلاء من الشعراء النقاد ، أو النقاد الشعراء . ومع ذلك هناك نقاد برأس واحدة ، وليسوا أفضل بالضرورة ، واحتراف الناقد ليس دليل ذكاء أو نباهة ، وفى دعوة النقاد التى نضطلع بها هنا لن تكون هناك أوهام نقابية ، ولن يستخرج أحد رخصة ناقد ، وإنما يتولون النقد على نحو ما كانوا يهتمون به ، وحيثما كانوا ، ولن يُطلب منهم أحد أوراق اعتماد ، ذلك حق ، ولكننا سوف نترك جانبا النقد الفارغ ، ذلك الذى يأتى وليد عقول مضطربة ، سواء أكانت مهنية أم لم تكن ، ويقدم ملاحظات سطحية فحسب ، أو لمّا تنضج ، وهو الأكثر شيوعا ، ولا يستحق أن نهتم به ، وإنما سوف نهتم بالنقد المنهجى فحسب .

ماذا نفهم من « نقد منهجى » ؟

طبعا لا نشير إلى الشكل الخارجى الذى يعرضه النقد ، وإنما إلى الدقة الذهنية التى يفكر بها . وتعليق موجز مُسبّب على كتاب يمكن أن يكون مفهوما منهجيا ، وعلى النقيض ، يمكن أن نجد رسالة ذات مظهر أكاديمى كلها تعوزها المنهجية كاملة إنما نسمى نقدا منهجيا ما يمارسه النقاد الذين يسهرون لكى يفهموا كل ما يدخل فى سير إبداع العمل الأدبى .

خلال قرون كان التفكير فى الأدب جادا ، ولم تكن قد وُلدت بعد العلوم التى يحترمها كل العالم اليوم ، وكان النقد يتهيأ ليصبح علما ، ومن الظلم إذن أن يعتقد كثير من الناس أن أى جاهل بأصول العلم تعايش مع الأدب إلى حد ما ، مُهيأ لأن يكون ناقدا ؛ ذلك لأن النقد يحتاج إلى معرفة أوليات العلم . فالناقد يستطيع أن يناقش أفكارا عامة فى الأدب الذى يركز على ما هو أيديولوجى ، وأن يتخصص فى التحليل أمام الأدب المحكم الخالص ، وفى كل الحالات يحتاج النقد إلى جهد خالص وترويض جاد .

كل شخص مثقف عنده فكرة واضحة تماما ، أو إلى حد ما ، عن ماهية النقد ، وانطلاقا من هذه الفكرة العامة سوف نمضى

إلى اكتشاف أرض النقد الأدبى ، وإلى رسم خريطة له ، وكما فى كل الخرائط سوف نشير فى خطوط عريضة إلى العلاقات الكبرى ، معرضين عن التفاصيل ، وبالتالى فإن تصنيفاتنا سوف تكون لغايات تعليمية خالصة ، والمهم ، كما نعرف ، وحدة الفكر . وعندما نحدد المناطق فإنما لنساعد على النظرة الإجمالية فحسب ، وإذا جرؤنا على إثقال شبكة المستويات ، وأشباه المستويات ، فلأننا بالدقة لا نريد أن نعترف لها بأية صرامة ، فهذه الشبكة موجودة فى وسائل معرفتنا ، وليس فى طرائق الحياة الواقعية ، ويمكن أن نلغيها ، وأن نعيد صياغتها فى نظام آخر من التصنيف ، وله نفس التماسك أيضا .

المفاهيم التى نستخدمها سوف تلوّن هذا المنظر العام المائع أمشاجا دون تقسيم ، وستكون مجملة فحسب ، وحتى أسلوبنا هنا سوف يكون موجزا ، وسوف يضطرنا ضغط المواد التى بين أيدينا فى المسافة المحدودة المتاحة لنا إلى التضحية أيضا بالتفصيلات ، والأمثلة ، وتنمية الأفكار ، وسوف نقدم نوعين من المصادر : مصادر نشير إليها مباشرة فى فقرات بحثنا ، وتجئ أسفل الصفحات ، والأخرى أكثر عموما ، ومفيدة لأولئك الذين يرغبون فى التعمّق فى المادة ، وتجئ فى النهاية . وقد اخترنا القليل من العناوين ، ذلك حق ، ولكنها موضع ثقة

ومتاحة ، وهى بدورها تقدم قائمة بالمصادر أكثر تخصصا ، وأردنا منها أن تكون مفيدة . وبما أن هذه الصفحات كُتبت للطلاب بخاصة ، من الذين يدرسون فى الجامعة ، وينتظمها الآن كتاب ، فسوف نهديها إلى الشبان الذين يعكفون على دراسة النقد الأدبى .

إلى هنا فإن مقدمة « النقد الأدبى المعاصر » وصدرت فى بونس أيرس ، فى منشورات جورِ Gure عام ١٩٥٧ كانت مجرد كُتيِّب ، طبعته محدودة للغاية ، ولم يخرج من المدينة التى طُبع فيها ، وفيها نفد فى الحال ، والآن زدنا فيه ، ولهذا يجئ كتابا جديدا ، وأعطيناه عنوانا جديدا : « مناهج النقد الأدبى » .

لم تعد النظرة العامة أوضح مما كانت عليه منذ عشرة أعوام بل على النقيض ، ارتفع برج بابل ، واشتد صخب اللغات البابلية المختلطة ، وأصبح الحوار كل يوم أشد صعوبة ، وإذا كانت قبضة التصور الاجتماعى أخذت مكان الدفاع أمام تقدم الشكلية المنتصر ، فإن على هذه أن تدافع اليوم عن نفسها ، والمفهوم الجمالى للبنائية يلاحق مفهوم الجدلية التاريخية ، ولكن هنا ، وفجأة ، يصبح التزامن تطورا لغويا ، وتعود

الشبكات البنائية للانفتاح أمام التاريخ . وناقد النقد بهلوان فى « سيرك » ، تعود أن يدور بينما الأرجوحة تهتز من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، طائفا بكل المواقف الممكنة ، وما ظن أنه يراه جيدا لم يعد أمام ناظريه ، ولا شئ فى المكان الذى كان فيه ، وعلى النقيض تظهر وجوه فى فراغات كانت قبل خالية . وحينئذ يعض الناقد بنان الندم على أنه ألّف كتابا فى مناهج النقد .

لماذا يؤلفه إذا كان غدا سوف يرى ما لا يراه اليوم ؟ . أما كان من الأفضل أن يكون أكثر ذكاء وأن يبرع فى مغامرة نقد الأدب ، بدل أن ينقد النقد ، وهى مخاطرة غير مفيدة ، وفيها من أرجوحة « السيرك » شئ من الجنون ومن الظرف ؟ ربما . ولكن الكتاب قد ألّف ، وربحنا شيئا ، ونفترض أن كل الأمثلة التى تنير تصنيفنا لمناهج النقاد سوف تتغير مستقبلا ، ونفترض الآن أن اختيار هذه الأمثلة كان سيئا ، وأن النقاد الذين أتينا على ذكرهم ، واحدا وراء آخر ، أو كلهم دفعة واحدة ، يحتجون لأننا أسأنا تصنيفهم ، أو لأن التصنيف نفسه شوّه أجسامهم ، ونفترض ... لا بأس ، ليكن افتراضنا ما يكون ، فسوف يبقى دائما التصنيف نفسه تدريبا نظريا ، وهو تصنيف يعتمد على الواقع الذى يظهر فى ضمير

العاكف على دراسة الأدب : أى فى دائرة النشاط الخلاّق للكاتب ، وللعمل الذى أبدعه الكاتب ، ولإعادة خلق العمل نفسه فى أعماق القارئ .

والطلاب ، وهم الذين نخصهم بكتابنا ، يستطيعون أن يفيدوا من هذا الرأى ، لكى يشرعوا فى أبحاثهم ، مع فهم أعمق لوظيفتهم ، حول أى جانب من جوانب الأدب . وبعد ذلك كله ، فليست غايتنا أن نقدم نظرة إجمالية عن نقاد اليوم – ولو أننا أعطينا هذا عابرين – وإنما أن نقدم لهم المفاتيح كى يدخلوا فى الأدب من الأبواب الثلاثة .

E . A . I

جامعة هارفارد

كمبردج – ماسشوستس

مارس ١٩٦٨